

## الاتصال...

### وممارسة العنف الرمزي للقيادة التربوية.

الأستاذ حيدش سعد

باحث في سوسيولوجيا الاتصال

hidech81@gmail.com

#### مقدمة

بلا شك فإن المعرفة الاتصالية للقيادة التربوية والإدارية قلبت موازين الأطر التنفيذية للتربية وأخضعت كل محتوياتها إلى رؤية نقدية وأصبحت المباحث التربوية تشكل حقيقة معرفية للوصول إلى نتائج أكثر تمثيلاً للواقع، إذ نجد الثورة الهادفة للمعرفة عرفتها بعض البلدان المتقدمة تكنولوجياً، كما تؤكد الحقائق أن الاتصالات لها دور فعال في تحديد التطورات الاجتماعية، إذ تكتشف في كل حالة اجتماعية تأثيرات تقنية وجهازها الثقافي. ويوضح البعض بأن تطور التكنولوجيا واستثمارها في مجالات شتى يعكس الوجه الاجتماعي وتطور نماجه، فعلى إثر التحليل السوسيولوجي حسب رأى بعض المختصين<sup>(1)</sup> الذي يكشف مدى الترابط العلائقي بين الصورة التقنية الثقافية لهذا التواصل والملح الإنساني الاجتماعي القائم، والتربية بدورها تزود الفرد بمعارف ومهارات تساهم في تكوينه وتنمي فيه الملكة النقدية، وهو ما يفتح له تجاوب مع الأسئلة المعرفية التي يثمنها الاتصال، إذ التربية تؤسس للفرد لغة رمزية وتطور فيه الحوار والفكر الاتصالي الذي يحدد بدوره المفاهيم المستخدمة في تصنيع هذه التكنولوجيا الاتصالية التي تساهم هذه الأخيرة في نشر التراث الثقافي، وتطرح عملية التلازم أنه لا يمكن أن يتحقق الاتصال داخل المؤسسة التربوية إلا من خلال عملية تفاعل متواصل بين مختلف أعضاء المؤسسة تتجسد في هذه الحالة السلوكيات المتوقعة نتيجة العلاقات المركبة من التأثير والتأثر حيث تزداد العلاقة الاتصالية وتتوطد عملية التفاعل كصلة لجملة الخبرات والتجارب النابعة من الاحتكاك. وتعتبر مرحلة مستمرة لطابع التنشئة الاجتماعية التي يتمكن أعضاء المؤسسة من خلالها امتلاك مجموعة الرموز الاتصالية والصيغ التي تستعمل ضمن المواقف، ورغم تعدد النماذج للقيادة وتعاقبهم على مراكز التسيير فإننا نلاحظ من له صفات التسامح مع مستخدميه وهناك من يحمل صفة الدكتاتور في معاملته إلى جانب القائد الديمقراطي الذي يحسن المعاملة ويجمع بين الجانب الإنساني وجانب الانضباط الوظيفي. ونظراً لوزنه في إدارة المؤسسة ومدى تفاعله مع الفريق التربوي فإن وجوده يحقق الأهداف خاصة إذا كان يتمتع بمهارات وقدرات فنية تستهوي التبعية من قبل طاقات الموظفين، إذ

يعرف أن لكل قيادة أتباعا طوعيين لأن مهام القيادة هي إيجاد فرص للحرية للعاملين باعتبار أن له قدرة التأثير على الموظفين ولكونه يعرف كيف يعالج الموضوعات المطروحة و الظرفية وهذا نتيجة تدريبه على مهارات الاتصال , مما يزيد في فسحة المشاركة للأعضاء التربويين في كيفية المساهمة في اتخاذ القرار وطرح انشغالاتهم وإبداء الاقتراحات والحلول المناسبة , وهو ما يجعل القائد صاحب رؤية عميقة في معالجة القضايا وله قراءات متعددة للمواقف قبل إصدار أي حكم, كما تعطي كفاءة القائد وتكوينه المعرفي والميداني طبيعة خاصة لرقابة مصالحه ومتابعة انشغالات العاملين بها, وبصيغة أخرى فإذا كانت عملية الاتصال داخل الحيز التربوي تفتقر إلى الأسلوب المنهج فإنها تنعكس على الأداءات, وبالتالي فإن فشل عملية الاتصال للقائد الإداري أو التربوي بالمؤسسة تؤدي إلى اضطراب في سلوك المعلمين وينعكس ذلك على مردود المتعلمين بالضرورة. ومن خلال هذا التصور تتشكل لدينا هذه الإشكالية:

- ما أثر العنف الرمزي المسلط من قبل القيادة التربوية على المدرسين خلال الاتصال التربوي ؟

ومن هذه الإشكالية تتضح جملة من التساؤلات التالية من أهمها:

- لماذا تمارس القيادة التربوية العنف الرمزي على الموظفين التربويين أثناء الاتصال التربوي؟

- ما هي انعكاسات هذه الممارسة على طبيعة المتعلمين وسلوكاتهم؟

وفي إطار تتبع أثر هذه الخطوات نجد في هذا الحالة أن المنهج يدور حيثما يدور الموضوع، أي أن المنهج يخضع لطبيعة المشكلة المختارة، ويكون بذلك قد سهل علينا حل الإشكالية والإجابة عن التساؤلات المطروحة، كما يكشف عن حقيقة الظاهرة بواسطة تفصلات عناصر الحقائق وتمكين الآليات المتعلقة بالموضوع في تحديد التركيبات البنائية، من هنا نجد أيضا أن المنهج له طبيعة التحليل والوصف بطريقة علمية هادفة ومنظمة بغية تعيين الهدف للظاهرة الاجتماعية الممكنة دراستها. ولهذا يعتبر اختيار المنهج الخاضع لطبيعة الدراسة له بعد إستراتيجي للوصول إلى نتائج بحثية بطرق منهجية ، وهو ما يشكل السبيل العلمي للكشف عن النتيجة الحقيقية الخاضعة لمراحل العلم وقاعدته، وعليه كان استخدام المنهج الوصفي التحليلي الذي يحوي اهتمامات في تفسير المعطيات وتحليل الظاهرة المراد دراستها.

**أولا/القيادة وأهميتها في التخطيط:**

تبقى أشكال وصور السلوكات الإدارية مرتبطة بالنموذج القيادي الذي يعتبر المؤثر الحقيقي في الأجهزة التنظيمية وتظهر سلوكاته في مظاهر المداولات الأمرية والمتابعة نظرا للدعم القانوني الذي يتمتع به كسلطة تثبت مركزيته، إذ إن التجارب الإدارية أثبتت أن القيادة مطلوبة بالحاح في ظل المنافسة وتقديم أحسن المتطلبات

الاجتماعية على مختلف المستويات الاقتصادية والثقافية، وفي ظل تزايد التقنيات التربوية وتنوع الوسائل وتعدد البرامج أصبح من الضروري دعم النظام التربوي بقيادة تحمل الزاد المعرفي والمهاري قبل حمل أساليب التسلط وممارسة العنف على المستخدمين والحرص على الشكليات، فالموظف في حاجة إلى معرفة علمية وتكوين دائم وتطلعات لكسب قدرات جديدة والاستفادة من التجارب والبحوث التربوية المتعددة خدمة للمنظومة، والملاحظة أن الطاعة والتبعية لهذا القائد ليست نابعة أحيانا من قناعة لها دلالة على فعالية و نجاعة المصادر المهنية وأهمية الأوامر، بل أصبح العمل لهذا الموظف يشكل هاجسا نفسيا لأنه لا ينطلق من رغبة حقيقية نظرا للضغوطات و الممارسات الفوقية. ويلجا هذا المعلم إلى تكريس مبدأ هذا الخيار في العمل من أجل تجنب العقوبات التي تفرض في حقه دون انتظار جزاء أو مكافآت لأن الموظف الجاد والموظف المدهن سواء في نظر بعض المسؤولين لأنهم أحيانا لا يؤمنون إلا بالمظاهر وتطبيق الشكليات البعيدة عن المضمون .

وأكدت من جهة ثانية الدراسات الحديثة أن القيادة هي أساس العملية الإدارية، وقد اجتهد الكثير من الباحثين في تعريفها وأحيطت بالعديد من النظريات حول تحديد مفهومها، وفي ظل المنافسة بين المؤسسات والتحديات العصرية أصبحت القيادة مهمة تعكس جودة المؤسسة أو إخفاقها نظرا للبعد الاستراتيجي الذي تشكله في حل المشكلات وفي تفعيل ميكانيزمات الإدارة، ويرى البعض أن الإدارة حالة مستمرة وشاملة وأن القيادة حالة جزئية ظرفية لها تأثير على سلوكيات وطبائع الآخرين واتجاهاتهم، أما المدير فتحدد مهامه بالقيام بالوظيفة الإدارية كالتنظيم والتنسيق ورسم المخططات والخرائط الخاصة بالتسيير وبهذه الصيغة يتضح أن عمل المدير يغلب عليه العمليات التنفيذية والإدارية بالمؤسسة، فيما تتوسع مهام القائد لتشمل الجوانب الفنية والإبداعية والإحاطة بالمرامي البعيدة والغايات الكبرى وفي ذلك يشترك مع المدير في التوجيه والمتابعة والتخطيط والتطوير والتغيير في الأساليب الموجهة نحو المستقبل، في حين ينفرد عمل المدير أيضا بما يتعلق بالجانب الظرفي الأني والاهتمام بما تتيحه له الظروف والإمكانات المادية.(2)

### ثانيا/اقترابات نظرية للقيادة الناجحة:

تتنوع النظريات حول الدور المحوري للقيادة الذي يشغله في حيز الإدارة، حيث نجد النظرية السلوكية تسعى إلى تحفيز القائد على التفاعل مع مستخدميه والتطلع نحو المزيد وتهتم بسلوك القيادة من حيث الاهتمام بالعاملين من ناحية و الحرص على الإنتاج من ناحية ثانية وهي ما تعرف باسم الشبكة الإدارية التي طورها بعض الباحثين المتخصصين(3) فيما تحرص نظرية السمات الشخصية وتما تلعبه هذه النظرية في تحديد الشخص القائد الذي يحمل صفات قد تكون جسمية أو نفسية أو قدرات عقلية كالذكاء وسرعة البديهة والحالات الأخرى كالشجاعة والقدرة على

إدارة الشؤون العامة كالحرب والقضايا المصيرية، و هناك ملامح تحدد الشخصية الفذة التي تولد بالفطرة تحمل موهبة غير عادية باستثناء الشخصيات التي تصقل معارفهم وتجاربهم عن طريق التدريب تخلق لهم حاسة العظمة التي تعكس سماتهم دون غيرهم، وعلى العكس من ذلك تنظر النظرية الموقفية التي تجعل الشخصية القيادية من خلال المواقف التي يتواجد فيها الفرد باستطاعته إدارة الأزمات وحل المشاكل العويصة التي تتبع من المواقف المتعددة كما عبر عنها البعض الآخر، في حين تفسر النظرية التفاعلية بأن القيادة هي محصلة تفاعل بين موقف شجاع يحتاج إلى التدبير والتفكير وبين عملية مهارتية تتفاعل مع هذا الموقف لإدارة المواقف الإدارية وفي وصف القائد الناجح أن تتطابق أقواله بأفعاله ولا يخالف قراراته التي يصدرها، وأن هذه النظريات في مجملها تفسر ظاهرة القيادة جزئياً وهي متكاملة في كليتها، تعطي للصفات وللمواقف والتفاعل ميزة مركبة للشخصية البارزة والقادرة على متابعة المسار التنظيمي دون فرض مزاج شخصي أو اعتبارات ذاتية يمارس من خلالها العنف على العاملين.

ومن جملة الأساسيات التي تترتب على القيادة التربوية الناجحة اتباعها لتجنب الاضطرابات العمل على تحديد أسلوب مميز في كل اتصال مع الموظفين و الأخذ بعين الاعتبار كفاءته وحساسيته اتجاه زيارات سلطة الانضباط، وتقدير الذات للمعلم وتحسين مستوى المعاملة الإنسانية و إضفاء سلوك الدعم بدل من الإخفاق، إلى جانب عدم تكرار الاتصال حتى لا يشكل هذا الأمر انزعاجاً للمدرس ويشغل باله عن التدريس مع إظهار الاهتمام بما يقدمه المعلم وتشجيعه وعدم الاهتمام بالشكليات والحث على إبراز القدرات العلمية والمهارات التي تساعد المتمدرسين والحرص بما هو علمي وما يخدم مهنة التربية وما يتصل بها من المعارف والدعائم المعلوماتية وما يزيد من توسيع الفضاءات المساهمة كالبعد الاجتماعي والنفسي للمدرس والمتمدرس معاً، كما يولي اهتمامه بعدم إغراق المعلمين في مهامات المراقبة الدائمة وترسانة التوجيهات غير المعرفية والتركيز على ما هو أساسي في العملية التربوية، فيما يبقى تشجيعهم أمر مهم للغاية على الإبداع والابتكار وكسر الملل الذي يخيم على رتابة الوظيفة نتيجة طول المدة .

### ثالثاً/نزعة القيادة وأساليبها:

هناك أبعاد تقنية وأخرى إنسانية يتطلى بها القيادي بغية تجنب الصراعات التي قد تحدث داخل المؤسسة، فعملية التحكم صعبة ومتشعبة نتيجة تعقد عمليات الاتصال للجنس البشري، فالأسلوب المميز يراهن على رفع الحساسية التي قد تظهر في أوساط المستخدمين، ومن أهم هذه الأساليب التي قد تتصف بإحداها القيادة الإدارية.(4)

- **الأسلوب الانفرادي**: يتخذ الفرد القرار المركزي ولا يسمح لغيره مشاركته في الآراء من المستخدمين ويتنوع هنا الفرد إما أن يكون متشدداً أو متحايلاً على العاملين موهما إياهم بأنه مهتم بأمهم بعدما يكون قد احتكر السلطة.

- **الأسلوب الديمقراطي**: هذا الأسلوب يوزع السلطة على بقية المستخدمين ومشاركتهم في اتخاذ القرارات للموضوعات محل المناقشة مما يؤدي إلى التقليل من حجم الصراعات الداخلية .

- **الأسلوب المتسامح والمتساهل**: يتميز هذا النوع بمظاهر اللامبالاة والإهمال حيث يصبح القائد هنا مجرد عضو كبقية المستخدمين، وإذا غابت المسؤولية غابت السلطة وانتشر التسبب وأزيلت الحواجز مما تنعكس على نتائج القرارات. ومن منظور وظيفة الاتصالات الإدارية حيث تقوم عمليات الاتصال بعدة أهداف كإطلاع المستخدمين بكل التعليمات الضرورية القابلة للتنفيذ، ومدى معرفة تطبيق هذه التعليمات وكذا المعوقات التي تعترض سبل عملهم، كما تمكن العاملين من جهة ثانية من توسيع خبراتهم وكيفية اتخاذ القرارات إذ تساهم عمليات الاتصال في هذه الحالة في تشكيل دافعية لدى المستخدمين وتحدد لهم كيفية القيام بواجبهم في ترقية الأداء وبهذا تمكنهم عملية الاتصال من التعبير عن احتياجاتهم النفسية والاجتماعية وتنظم سلوكهم أمام القيادة الإدارية.

#### رابعاً/ أهمية البعد الاتصالي الإداري:

الاتصال جزء ضروري في وظيفة الإدارة إذ بدونها لا يمكن أن تكتمل الانجازات فبغياص الاتصال تتأثر الوظائف الإدارية ويصبح هناك خلل في الأداء الوظيفي للمؤسسة وتظهر أهمية الاتصال الإداري من خلال تعدد النظريات المفصلة للجهاز الإداري، كما تبرز أهميتها أيضاً في الارتقاء بالنظرة للإدارة على أساس أنها ليست مجرد هيكل تجتمع فيه الأجهزة والموارد البشرية بل أصبحت الإدارة الآن تأخذ أهمية بالغة في الجهاز المفاهيمي للتنظيمات كما يعكس موضوعها العلاقات الرسمية مما زاد الاهتمام بها من قبل المختصين والمهتمين بهذا الحقل فقد تعددت ميكانيزمات المعالجة لهذا الإطار الإداري نظراً لما يقدمه من وظائف في تحسين نوعية الخدمات والتسيير للضوابط القانونية وللأجهزة الإدارية. وفي هذا الجانب يعرف هوبكنز (Hawbkins) عملية الاتصال ( بأنها العملية التي يتم من خلالها تعديل السلوك الذي تقوم به الجماعات داخل التنظيمات و بواسطة تبادل الرسائل لتحقيق الأهداف التنظيمية ).(5)

وتبنى على هذا الأساس أن الإدارة ما هي إلا محطة من محطات الاتصال وبالتالي فإن الاتصال هو إنتاج البيانات والمعلومات الحاصلة من التفاعل لخدمة لتتابع أليات العمليات الإدارية وتصحيح مسار العمل وتعديل سلوك المستخدمين إذ نجد أن عملية الاتصال لها دور في الربط والتنسيق بين مختلف الأجهزة الفرعية للإدارة كما تحدد

أيضا الأهداف الرئيسية للاتصال بوظيفة نقل وتبادل الخبرات والمعلومات بين طرفين سواء كان هذان الطرفان أفرادا أو جماعات.

وبنجاح العملية الاتصالية تؤدي إلى نجاح العملية الإدارية فيما إذا فشلت العملية الاتصالية تفشل العملية الإدارية وهذا ما يؤدي إلى خلل وظيفي في إحدى عناصر العمليتين فالتحكم الجيد في دواليب التنظيم يعطي صورة طبيعية للاتصالات المتكاملة والمنسقة.

ولمعرفة حقيقة عملية الاتصال لابد من تحديد عناصرها من حيث انطلاق الحديث وأين ينتهي والعمليات التي يتعرض لها خلال المراحل التي يسلكها ومن أهمها مايلي (6) :

- 1- **المرسل** هو نقطة الانطلاق التي تصدر المعلومات ويعتبر المرسل في الجهاز الإداري كل أعضاء العملية الإدارية.
- 2- **الرسالة** هي جملة المعاني والرموز التي يبعث بها المرسل إلى المستقبل من خلال قناة بغية التأثير في الآخر.
- 3- **القناة** وهي الوسيلة التي يستخدمها في نقل الرسالة أو المعلومات وهي تتنوع حسب المناسبة تكون إما لفظية أو كتابية أو تصويرية.
- 4- **المتلقي** وهو الطرف الذي يستقبل الرسالة من قبل الطرف الأول (المرسل).
- 5- **رجع الصدى** وهي الكيفية التي تثبت تحقيق الهدف وبلوغ الغاية وتكون مختلفة حسب القناة المناسبة المستعملة ومن خلال هذا الرجوع نستطيع تعديل أو تقويم الرسالة مرة ثانية.

#### **خامسا/أهداف الاتصال بالنسبة للمدرسين التربويين :**

المعلم هو أحد معالم عملية الاتصال ووجوده يحقق أهدافا عديدة إذ أن كل الرسائل التنفيذية توجه إليه مثل الرسائل التي تعني بطلب معلومات ميدانية فمن الأرجح أن تكون زيارات المسؤول لهذا الموظف من أجل زيادة المعنويات والحرص على دعم مهاراتهم وكسبهم طرائق جديدة ويكون الهدف من الزيارة أيضا تثمين أو تعديل أو شرح عناصر مهمة دون توبيخ أو إحراج لشخصيته، ومنه بعث روح المسؤولية ودعم الثقة بغية التشجيع ورصد إشباعات وحاجات الموظفين، وفي ذلك لهم الحق في إبداء آرائهم ومواقفهم بقناعة تامة وطبعا يتم ذلك من خلال المعاملة الحسنة والسلوك القويم واعتبارهم أشخاص يحملون أفكارا وبنية للثقافة والحضارة، لأن التعليم يمثل قاعدة المجتمع المعرفة وهو قضية جوهرية مهنية تعبر عن بعد سياسي اجتماعي كما وصف ذلك باولو فريري (7).

ويؤكد الأستاذ الطنوبي في ذات السياق أن التربية تشمل على عناصر مكونة للعملية الاتصالية ويحددها بعبارة أن التربية عملية اتصالية بالضرورة إذ أنها تتضمن إكساب الفرد مجموعة من الخبرات والمعارف والاتجاهات التي تساعده على

التكيف مع البيئة الاجتماعية<sup>(8)</sup>، ويضيف في تعريفه للتربية على أنها تهتم بتحويل الفرد من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي يتمتع بكل الصفات الإنسانية ويمتلك مجموعة القيم الاجتماعية و السلوكيات وبعض المهارات والأساليب التي تجعله متكيفا مع محيطه والبيئة الاجتماعية، ويصنف ذات الكاتب بعض معاني التربية<sup>(9)</sup>، حسب طبيعة وظيفتها إذ أن التربية تتميز بالتكوين الاجتماعي للفرد وتقوم بكسب التقاليد والعادات وجملة المعايير والقيم التي تحدد أهدافه مستقبلا، كما تبرز لديه الأدوار الاجتماعية وعلاقته بالآخرين من المجتمع، كما تمكن التربية من المحافظة على التراث والثقافة حيث تهدف بذلك للحفاظ على الإرث الاجتماعي وبقاء نوعه، فيما تعمل أيضا على تعليم الأفراد ونقل المعارف والمهارات من الكبار إلى الصغار في وسط تفاعلي اجتماعي، إذ يمكن هذا التفاعل من دعم المكونات الفردية ضمن البيئة الاجتماعية.

وتسعى كذلك بدورها إلى إحداث عمليات جمع الشمل وضبط معاييرها من أجل التماسك الاجتماعي وهي فضاء لكسب أنماط يمتلك من خلالها الفرد علاقة مع الآخر المختلف، وفي هذا الاتجاه تتشكل لدى الفرد عمليات نمو مستمرة تهدف إلى إكسابه العديد من الخبرات والعادات لتعديل سلوكه وطريقة حياته، وبصورة أخرى يتمثل اتصال القائد الإداري للموظفين التربويين في إيصال الأوامر والقرارات الإدارية والتوجيهات الجديدة دون فرض أسلوبه و سلوكياته التي قد تعيق سير التعليمات، لأن هناك من يمارس عنفا لاشعوريا نظرا لدمج السلوكات الشخصية في كفاءات تطبيق القرارات أوفي كيفية تفسير التوجيهات مما ينتج عنه ردود أفعال سلبية تعكس التنافر الحاصل بين القيادة والمستخدمين نتيجة استخدام العنف الرمزي باسم القانون الذي يأتي على شكل قرارات أو تعليمات، ومن أحسن الاتصال في هذه الحالة حقق الأهداف المسطرة، كما تبرر من خلال الاتصال الكفاءة المنتظرة دون النفاق الاجتماعي الذي يخفي الكثير من العيوب نتيجة العمليات الاتصالية الفاشلة<sup>(10)</sup>.

#### سادسا/ المعلم والضغط المهني المتواصل:

يعتبر المعلم المركز الأول في العملية التربوية فالاهتمام به من خلال الاتصالات أمر لازم لتحديد العوائق التي تفشل تحقيق الهدف التربوي ومن أهم هذه الضغوطات التي يتعرض لها المعلم ما يلي :

- 1- الزيارات المتكررة للمسؤول الإداري والتربوي والإصرار على ملاحظة الأبعاد الظرفية والشكلية (التحضير. المنزر. المعلقات)

- 2- ممارسة العنف الرمزي على المعلم في صيغة ألفاظ أو تلميحات أو إحياءات من قبل المسؤول وتعتبر هيمنة سواء كانت باسمه الشخصي أو في ظل تطبيق القانون.
- 3- ضغط الوقت يقابله ضغط في الدروس مما يراهن على مضاعفة المجهود على حساب قدراته فيؤدي ذلك إلى ضعف في الأداء والتقليل من نتائج التحصيل.
- 4- تعدد المهام أو صراع الأدوار لدى المعلم جزء منه يتكفل بالجانب التربوي وجزء بالجانب الإداري كتحضير الوثائق والحراسة وغيرهما .
- 5- يعاني المعلم من عدم التكوين الجيد والمستمر الذي بوجوده يساعده على التغلب على الصعوبات والتخفيف من النقائص المعرفية والتقنية.
- 6- عدم مشاركة المعلم في صنع القرارات المهنية مما يزيد من الضغط النفسي وتهميشه كأنه يقوم بدور الآلة فقط.
- 7- الحد من طموحاته من عدم الدعم المعرفي أو المادي وخاصة عوائق الترقية في مصاف السلم المهني.
- 8- ضغط اجتماعي يعاني منه المعلم من احتقار مكانته المادية والمعنوية خلافاً للأطوار التعليمية الأخرى التي تحظى بمنزلة وقيمة اجتماعية معتبرة.
- 9- ضغط بعيد المدى نتيجة طول المدة في المهنة الواحدة والتأثير يكون نهاية المرحلة (التقاعد) وهو أمر محجف في حقه، كما أن قلة الحوافز للمعلم نتج عنها أثر نفسي واجتماعي.
- 10- عدم ضبط العلاقة بين المسؤول التربوي كموجه وبين دور المعلم وعدم الفصل بين ما هو من مهام القانون وما هو اجتهاد شخصي لهذا المسؤول مما أدى هذا إلى اختلاف وتناقض بين المسؤولين التربويين والإداريين , وبالتالي يكون تأثيرها سلباً على المعلم الذي يذهب الضحية الأولى في كل الحالات.

### سابعاً /النشاط التربوي والعنف الرمزي

ومن منظور اجتماعي فإن المحددات التاريخية التي تعرف القهر الاجتماعي والتي تكلم عنها المفكر الاجتماعي عبد القادر جغلول في مفهومه للصراع عند ابن خلدون وما يتعلق بتفسيره للعصبية كظاهرة اجتماعية خصوصاً مع تباينها في المجتمعات الأخرى<sup>(11)</sup>، من جهة أخرى وحسب التشريع المدرسي فإن مفهوم العنف يتسم باستخدام الضغط أو القوة استخداماً غير شرعي أو غير ملائم قانونياً في فعله مؤثراً بذلك على قيم الآخر، وعلى الرغم من تفسير ظهور العنف نتيجة لعدة أسباب منها الجانب الاقتصادي للأسرة وللدولة وانتشار الفقر وتوسع دائرة التهميش إلا أن هناك من يفسره بالعامل البنائي الذي يبرز في المسيرة التاريخية<sup>(12)</sup>، وتتكدس طبيعة



البناء لتتحول إلى ظاهرة اجتماعية اعتباطية تتكرر مع مرور الزمن أي إعادة إنتاجها , ويرجع السوسولوجي التونسي المنصف الوناس طبيعة العنف في الجزائر إلى مرحلة الكولونيالية أي نتيجة لفترة الاستعمار التي دامت أكثر من 132 سنة, موضحا أن العنف كان مستهدفا و متباينا في العلاقات نتيجة الفعل ورد الفعل مما أدى إلى تشكيل العنف بصفة متلازمة للبناء الاجتماعي.(13) ويتمظهر العنف الاستعماري في التدمير البيوي للجزائر بغية اختراق النسيج الاجتماعي فأدى ذلك إلى رجوع صدى قوي وعنيف من مجتمع تقليدي يتميز بصلافة قوانينه العرفية , وهذا التدمير ليس مقتصرًا على البعد القيمي للمجتمع التقليدي فحسب, ولكن كذلك على المجتمعات الحديثة التي تعرف هي مخاطر متعددة أدت إلى تدمير البيئة والإنسان كما عبر عنها العالم الاجتماعي الألماني اولريش بيك بالمجتمع المخاطرة.(14) ويمكن أن نؤكد من خلال العديد من الدراسات أن العنف الرمزي أصبح خاصية سوسولوجية في المجتمع الجزائري وقد ارتبط بعوامل عديدة يذكر الأستاذ جورج بيبلا أن هناك ارتباطات بين تنامي العنف ومشاريع التنمية الفاشلة التي تعرفها الدول النامية (15).

ويطرح كذلك الباحث الاجتماعي عمار بلحسن في السياق ذاته مسألة الثقافة في الجزائر وما تشكله من بعد سوسولوجي وتأثيرها على البنية الاجتماعية , حيث شبه الفعل الثقافي بالواقع الريفي الخالي من كل تأثير إيجابي مشكلا بهذا فراغا ثقافيا في الجزائر, نتيجة حالة التركيبة الأحادية السياسية التي كبلت الأطر الثقافية للبلاد, مشيرا أن سبب فشل النموذج الثقافي يعود إلى الإطارات الحزبية التي كان وضعها هشًا وفاقدًا للمعرفة العلمية وللإنتاج الثقافي, في حين عبر الأستاذ الرحمن بوزيدة عن ظاهرة العنف وعلاقته بالحدثة في إطار الفكر السوسولوجي معددا الأسباب التي أدت إلى استفحال هذه الظاهرة اجتماعيا(16).

وفي الحقل التربوي يشير عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو إلى القوة المستخدمة من قبل السلطة أو من وكلت لهم المسؤولية ويحددها بالنفوذ الذي ينجح في بسط دلالات معينة خاصة إذا أضيف للقوة المدركة قانونيا القوة الخصوصية الذاتية, حيث يعبر بقوله (إن أي نشاط تربوي هو موضوعا نوع من العنف الرمزي , وذلك بوصفه فرضا من قبل جهة متعسفة لتعسف ثقافي معين)(17) وينطبق هذا على كل من يمارس هذه القوة سواء من قبل الأفراد المتعلمة أو من قبل عناصر (العائلية أو الحزب سياسي) ويفسر أن النشاط التربوي يعيد إنتاج الثقافة السائدة فيما يعيد هذا المجال أيضا القوة وعلاقتها في إطار النسيج الاجتماعي وتوظيف داخل هذا النشاط أساليب العنف الرمزي الشرعي كما يمارسه المسؤول الإداري التربوي على بقية المستخدمين, ويكشف من ناحية أن النشاط التربوي يعتبر فعلا عنفا غير مرئي نتيجة

علاقات القوة التي تتضمن التشكيلية الاجتماعية، والتي تؤكد على حالة التعسف الواقعية و المساهمة في علاقة الاتصال التربوي بغية ترسيخ المفهوم الثقافي للتعسف التربوي.

ويفسر هذا التعسف كجذور مرتبطة بالوالدين كإرث يشكل ارتباطات اجتماعية أيضا، إذا أن علاقة القوة كما يذكر بيار بورديو أنها تكون التشكيلات الاجتماعية ذات الارتباطات لكل من الوالدين حيث ترمز هذه النشاطات في الحقل التربوي بواسطة الأبناء ، وتتمثل هذه العلاقة إما تنافسية أو تنازعية في إطار عائلي وهكذا تتمظهر النشاطات التربوية في العقوبات العرفية أو القانونية، وإزالة هذا الغموض الفكري يحلل بورديو بأن البعد البيولوجي يحدد البنية الاجتماعية التي تعترف بسلطة الراشد على الصغير وعلاقتها العائلية.

ومن خلال ممارسة الاتصال في الوسط التربوي يحدث أثرا رمزيا تعبيرا عن إنتاج القوة للنشاط التربوي لكونه يشكل نفوذا نظرا لتوفر الشروط الاجتماعية اللازمة، ويضيف بورديو أن العلاقات الداخلية وما تشكلها من بنية اجتماعية هي التي تحدد أيضا علاقات القوة الرمزية بين الأفراد أو بين ( المسؤول و المستخدم ) ،(وهي البنية ذاتها التي تعبر بدورها عن العلاقات القوة بين الجماعات والطبقات التي تتكون منها التشكيلية الاجتماعية المقصودة)<sup>(18)</sup>.ومن هذه الإشارة ينتج أن التعسف الثقافي

له أثر قوي في الهيمنة من قبل تعسف الفارض في إطار عملية الفرض التي يعيد إنتاجها اجتماعيا، وبالتالي ليس من السهل أن نتجاهل العلاقات الرمزية ضمن إعادة إنتاج علاقات القوة المتساوقة في النشاط التربوي، وفي سياق الهيمنة تؤكد الوقائع لمفهوم العنف الرمزي أن المدرسة وعلى رأسها القيادة التربوية والإدارية تسعى دوما إلى إعادة إنتاج الرأسمال الثقافي للبنية الاجتماعية السائدة والمهيمنة ويظهر هذا الفعل من خلال القيمة الاقتصادية والمادية لأفراد المجتمع الذين يحملون رأسمال ثقافي تعسفي فيعيد النشاط التربوي إنتاجه متمثلة في القوانين والقيم الشخصية للقيادة المدرسية وأعضاء المؤسسة التربوية.

ويتميز التعسف أنه غير مكشوف أي محبوب عن الملاحظة الشكلية ويعتبر منطلقا للنفوذ المسلطة موضوعيا حيث يساهم في دعم السلطة التربوية التي تفرز العنف الرمزي الذي يبدو شرعيا في الحق الفارض يدعم به الفرض التعسفي ويؤكدده، في حين تبقى الصفة الشرعية حاجية لهذا العنف المتأصل في النشاطات التربوية والمستمد أحقيته من القانون الذي يفرض الضغط والخضوع وهو ما لا يدرك اعتباطيا، ويترسخ التعسف الثقافي في هذا المجال ضمن علاقة الاتصال التربوية مما تنعكس هذه الممارسة أيضا على النشاط الاجتماعي الذي يعاد إنتاجه، كما يستنتج أن عدم مشاركة المعلم في صياغة القرارات التربوية يعتبر عنفا، لأن القرارات التربوية هي جزء من النشاط التربوي الذي يمارسه المعلم، والجهل بحقيقة هذا النشاط هو تعسف، لأن المعلم لا يشارك بنفوذه في هذه القرار وبالتالي يمارس عليه قهرا وتعسفا من قبل المسؤول التربوي الفارض لهذا القرار، لأن هذا الأخير لا

يشعر بالتعسف المرافق للثقافة المرسخة في الأذهان وقد يقصد به تعويضا عن نقص في ذاته لمحاولة تغطية الضعف والتمويه بحقيقة الالتزام، وهو ما يجعل النمط التعسفي نمطا مزدوجا ضمن السياق النشاط التربوية وطبعاً لا يخفى ما لهذه الممارسة من تمرير وفرض جملة من المعايير مما تؤكد الأساليب أنه لا يوجد نشاط تربوي بدون عنف رمزي لأن الأحكام القانونية لا تسمح بتطبيق التعسف أو العنف المادي الظاهر للمعانة، وفي هذه الكيفية نجد أن المعلم إذا مارس نشاطه التربوي بسلطة رمزية فعلية تتميز بالحرية في كفيات التطبيق دون الخرق الإيديولوجي فإن الاتصال التربوي يكون له قوة قيمة تعكس الممارسة الشرعية للمهنية كما يصبح للمعلم دور في تأدية رسالته التربوية وتكون بشروط موضوعية قائمة على الرضا، فيما يكون من الضروري التمييز بين الاتصال التربوي و علاقات أشكال الاتصال المتداولة بين الفاعلين الاجتماعيين الذين يمارسون من خلاله العنف الرمزي، والحقيقة أن النشاط التربوي يخفي أساليب تعسفية يمررها بطرق يصعب فك رموزها، وهو ما يؤكد بورديو أن النشاط التربوي يؤدي إلى الغفلة عن حقيقة التعسف الثقافي<sup>(19)</sup> حيث أن الرسالة أو الخطاب الذي يتناول عن طريق الاتصال التربوي له قوة كبيرة في تبليغ مضمون النشاط التربوي وتقرز هذه العملية سلطة تربوية يعترف بها المستخدمون وبشرعية المعلومات التي تصلهم .

وبذات المنحى يؤكد الأستاذ يزيد حمزاوي في مقاله أن للاتصال أبعادا جمّة في تغيير السلوكات» إذ لا يمكن تصور تربية بدون اتصال، فالتربية عملية اتصالية بامتياز، وبإسقاط العملية الاتصالية على العملية التربوية نجد تطابقا تاما بين عناصر العملتين...»<sup>(20)</sup> ويعطي فكرة أن هذا التطابق بين العمليتين يبرز لنا وضعية بين المستويين إذ أنه يمكن إذا حدثت حالة فشل في الأداء بالضرورة فإنه يحدث فشلا مماثلا في المضمون وهو ما يعبر عنه في مسألة التلقي، وهذا ما أمكن تسميته بالخلل الوظيفي بين العمليتين، وتشكل العملية الاتصالية بجملة عناصرها عاملا جوهريا لفتح آفاق رحبة في عالم التربية والتعليم، إذ يعبر المرسل هنا عن المسؤول التربوي والإداري الذي يراعي وظيفة رسالته التي تعني التعليمات والقرارات القابلة للتنفيذ من قبل المتلقي الذي يشار إليه بالمعلم، وما يميز هذه العملية من تغذية راجعة ومن مسألة التأثير وما يصاحبها من تشويش أو خلل في فهم الرسالة بين الطرفين، فيما يمكن أن يكون المعلم مرسلا أيضا والمتعلم مستقبلا بصورة ثانية مشتملة على بقية العناصر الاتصالية بين هذين الطرفين الآخرين.

كما تستطيع أن تتكرر العملية نفسها مع المسؤول وعلاقته غير المباشرة مع المتعلمين وانعكاس ذلك على النتائج، ونستشف من خلال التطورات الحاصلة عبر الشبكات الاجتماعية للانترنت والفضائيات قد أعطت هذه المعطيات مفاهيم جديدة أثرت في المفاهيم التقليدية للحقل التربوي ونظرا للاحتكاك العلمي الإستراتيجي تجاوزت بعض المفاهيم مراحلها الزمنية، وهذا ما نتج عن تأثر التربية بعالم

تكنولوجيا الاتصال و أصبح لهذه الوسائل المتعددة ممارسة فعلية عبر الآليات والفرص المتاحة في شتى الميادين العلمية والثقافية وفي منعطف فك العزلة عن المدرسة أمكن من تدخل هذه الوسائل في التربية لتطوير العملية التعليمية، وبذلك تصبح المؤسسات التربوية مكملة لبقية المؤسسات الأخرى الثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، كما لزم الأمر على المدرسة أن تواكب تنمية هذه الحداثة من المعدات الإعلامية والاتصالية لتحقيق أهدافها الاجتماعية والتربوية إذ في هذا المنظور تسعى هذه الوسائل إلى تسهيل العملية التعليمية وتساعد الأفراد على اتخاذ القرار بدون خروج الهدف التربوي عن نسقه، وبهذه الحالة تعتبر المدرسة أيضا حقلًا إعلاميًا تؤدي رسالة تربوية إلى المجتمع العام محققة بذلك في المستقبل بما يسمى مجتمع المعرفة أو مجتمع المعلومات وتعتبر تكنولوجيا التربية شرطًا أساسيًا لتجسيد هذا المفهوم كما هو حاصل في البلدان المتقدمة تكنولوجيا، ونستنتج بعض العناصر في مرحلة تكامل هذه الوسائل بالوسط التربوي منها(21):

- 1- إعطاء أفق علمي حول ما يتداول في الوسط التعليمي من مناهج وطرائق بيداغوجية.
- 2- تعطي هذه الوسائل طرائق ونماذج جديدة في المنهاج وطرائق التدريس، وتساعد على التلقي والحوار وتبادل النقاش، كما تحدد مهام المواد العلمية ضمن الوسائل الاتصالية الملائمة.
- 3- تزود الوسائل الإعلامية الأفراد بالمعلومات وتغير في نمطية تعليمهم ورقابتهم وتربطهم بعالم التكنولوجيا المخبرية والمراكز البحثية.
- 4- ربط الحياة المدرسية بالحياة الاجتماعية والصناعية بواسطة استعمال هذه الوسائط الإعلامية.

#### ثامنا/انعكاس ممارسة العنف على التحصيل الدراسي للمتعلم :

إن الإكراهات الزمانية التي تمارس على المعلمين من قبل المسؤولين التربويين والإداريين تشكل بؤرة اضطراب وقلق تنعكس أثارها سلبا على المتعلمين، والتي تكون أيضا نتيجة الضغط المستمر والخفي الذي يترجم في ثنايا عبارات القرارات التنفيذية، إذ يؤثر العنف على الشخصية الناشئة التي تصبح مضطربة وعنيفة وعاجزة أيضا على الإنجازات، كما تضعف وتكون غير قادرة على تحمل المسؤولية، إلى جانب أنها تتكون لدى هذه الشخصية عقدة نفسية كالانطواء ومزاج الاعتداء، فيما يؤثر هذا العنف أيضا على الإرادة الحية وروح الإبداع والابتكار، إضافة إلى تهديم الطاقات الفعلية لشخصية المتعلم، وتصيح شخصيته ارتدادية تسلطية نتيجة عدم وجود قنوات للحوار وعلاقات حميمة كمتنفس للضغط المتكرر، فيما ينتج عن فقدان أهداف تربوية واعية تظلمات تعكس ضبابية مشروع مستقبلي يضبط العلاقة بين المعلم والمسؤول من جهة ويدعم الممارسة بين المعلم والمتعلم من جهة ثانية .

**تاسعا/ نقد العقل المدرسي:**

مع استئصال ظاهرة العنف في الوسط الاجتماعي وتوسع دائرة أساليبها , وتعدد مضامينها على الجوانب الأسرية والثقافية والاقتصادية والرياضية والإدارية وغيرها, عكست إطارها السلبي على المحيط التربوي وأثرت في السلوكيات الفعلية والرمزية, فإن تواجد هذه الظاهرة ولو بشكل رمزي في الفعل التربوي هي مثبطة للزعزعة ومحبة للإرادات, إذ تشكل عائقا أمام التواصل الفعلي بين الأطراف المعنية ومؤثرة فيهم نفسيا واجتماعيا, كما تعكس مضمونها على بنية المكونات الأخرى للواقع التربوي داخل الوسط المدرسي في العملية التعليمية مثلا والتحصيل الدراسي للمتعلم وإعاقة العلاقات المتضمنة في النسق التربوي .

وفي هذا تبدو أن الظاهرة لم تعالج سوسيولوجيا في بعدها التربوي, ولم ينظر إليها على غرار ما طرح في ظاهرة العنف داخل المؤسسات التعليمية فيما يحصل بين الطلبة وما يترتب من استعمال للعنف ضدهم من قبل الأساتذة, في حين لم تدرس عملية العنف الرمزي المسلط من قبل المسؤولين التربويين والإداريين خلال عملية الاتصال والتي يرجى منها أن تكون ممارسة للنقد البناء وللجوانب المعرفية والبيداغوجية , تساهم بدورها في رفع مستوى التعليم وتزيد من القيمة المعنوية والثقة للمدرس, وتدعم من ثمار الدراسة للمتعلم , والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو أين الخلل ؟ وكيف السبيل لمعالجته في الحيز المدرسي ؟ وهل الإشكال أخلاقيا يتفرق من شخص لآخر ؟ أم نحن في حاجة إلى ترسانة من القوانين لحماية الآخر من التعسف ولحد من الظاهرة وردع ممارسيها نظرا لتشعبها وتعدد منافذها المضرة للكرامة الإنسانية وللحياة المعرفية والاجتماعية على حد سواء.

**خاتمة**

لقد اتضح من خلال هذه السطور ما للاتصال الإداري من أهمية قصوى في تشييط النشاط التربوي وفي تطوير التنظيم الإداري, إذ نجد أن فعالية الإدارة تستمد حركتها من فعالية الاتصال فلا يمكن إصدار أحكام بدون شبكة الاتصالات التي تعتمد على تحصيل المعلومات لمعرفة المعطيات والخفيات التي تبنى عليها القرارات الإدارية, وترجع كفاءة القائد إلى الاعتماد على جميع عناصر عملية الاتصال دون استثناء أي واحد منها حتى تكتمل الوظيفة الإدارية , وعلى العكس من ذلك فإن فقدان الاتصال قد يشكل اضطرابا في الجهاز التنظيمي, مما يؤدي إلى ارتكاب أخطاء وممارسة تعسفية في حق الآخرين نتيجة الجهل بأساليب المعاملة وعدم الاطلاع على المعطيات الميدانية , وبذلك تشكل الرؤية هدفا مجهول الهوية لدى المستخدمين, فيقع تشويش في الرسالة نتيجة الانفصال النفسي والاجتماعي بين المسؤول والعاملين التربويين , ومنه يحدث عنفا يمارس من قبل القيادة نظرا للتباعد البيئي مما يؤدي إلى اختلال تواصل, وفي هذا الاختلال للعلاقة الاتصالية بينهما ينتج عنه اضطرابا وظيفيا سببه تدني فعالية القيادة المدرسية, ويرجع كذلك أيضا إلى تقليص من حرية الموظف ( المعلم ) وضبط مساره المهني بما يقرره المنهاج الذي يكرس

أبعاداً فكرية لها مواصفات محددة تخضع لها المؤسسة التربوية التي تعتبر جهازاً إيديولوجياً حسب تعبير المفكر الاجتماعي التوسير.

### هوامش

(1) دليو فضيل وآخرون. البحث في الاتصال- عناصر منهجية. مخبر الاتصال قسنطينة ط2/2009 ص61.

(2) حمادات محمد حسن محمد. القيادة التربوية في القرن العشرين/ دار الحامد ط1/ 2006 ص18.

(3) القريوني محمد قاسم. السلوك التنظيمي. دار وائل للنشر الأردن ط1/ 2009 ص 222.

(4) القريوني محمد قاسم. مرجع سبق ذكره. ص 201

(5) مرجع سبق ذكره. ص 204.

(6) حجازي مصطفى. الاتصال الفعال في العلاقات الإنسانية الإدارية. المركز العربي ط1/ 1982 ص21.

(7) فريري باولو. المعلمون بناء الثقافة /ت حامد عماد وآخرون الدار المصرية اللبنانية ط1/ 2004 ص18.

(8) الطنوبي محمد عمر . نظريات الاتصال. مطابع الإشعاع الأردن ط1/ 2001 ص 189.

(9) مرجع سبق ذكره ص 191.

(10) قاسمي ناصر. الاتصال في المؤسسة ( دراسة نظرية و تطبيقية).ديوان المطبوعات الجامعية. 2004 ص 92

(11) جغلول عبدالقادر. الاشكاليات التاريخية.(في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون).دار الحدائة.لبنان. ط3/1982 ص102.

(12) وزارة التربية الوطنية. تربية وعلم النفس.(تشريع مدرسي).الديوان لوطني للتعليم والتكوين عن بعد /2010 ص218.

(13) فضيلة دروش فاطمة.الآليات السوسيو ثقافية - مجلة كنوز الحكمة . الجزائر . عدد 2 ص 48.

- (14) بيك اولريش.السلطة والسلطة المضادة في عصر العولمة.ت جورج كتورة والهام الشعراني. م الشرقية. لبنان ط1 ص 69.
- (15) فضيلة دروش فاطمة. مرجع سبق ذكره ص 50.
- (16) مرجع سبق ذكره. ص 54.
- (17) بورديو بيار. العنف الرمزي/مبحث في الأصول علم الاجتماع التربوي/ت نظير جاهل. المركز الثقافي العربي. ط1/1994. ص 7.
- (18) مرجع سبق ذكره . ص 10.
- (19) مرجع سبق ذكره. ص 32.
- (20) يزيد حمزاوي. مقارنة اتصالية لبعض جوانب العملية التربوية/ مجلة دراسات نفسية وتربوية / جامعة البليدة ع 2006/1 ص 161.
- (21) أبو الحسن منال. أساسيات علم الاجتماع الإعلامي /النظريات والوظائف والتأثيرات .دار النشر للجامعات .القاهرة .ط1/2006. ص 125.